المرأة في صفحة العربية بين السياسة والحضارة

د. ليلى الصباغ

١٩٧٨

المـــــرأة في صقلية العربيـــــة بين السياسة والحضـــارة

د . ليلى الصباغ

المؤتمر الصقلي العربـــي

قطانيا . في ١٠ يوليو ١٩٧٨

من الأمانة والتقدير للعلم ، أن أصدر كلمتي هذه بعرفان عميق بالجميل ، للمستشرق المرحوم "أماري" ، الابن البار لهذه الجزيرة ، الذي سعى سعياً حثيثاً ، ومنذ اكثر من قرن ، كي يبعث "التراث العربي" في صقلية ، أو بتعبير أدق "التراث الصقلي العربي" ، وأن يثبت للعالم ، والأوربي منه بالذات ، وبالوثائق التاريخيـــة الدامغة ، التي جمعها من كل حدب وصوب ، وبصبر ودأب ، أن العرب المسلمين ، قد شيدوا في هذه الجزيرة ، التي هي "صرّة" البحر المتوسط ، وخلال قرنين ونصف من مطلع القرن الثالث للهجرة حتى أواخر القرن الخامس تقريبا / من الربع الثاني من القرن التاسع للميلاد وحتى أواخر القرن الحادي عشر ـ حضارة يانعة ، جعلـــت منها لؤلؤة مشرقة ومشعة ، وسط أجواء قاتمة ، كان العالم الاوربي بمجموعه آنذاك ـ ماعدا الأندلسي منه ـ لايزال يتخبط فيها .

فلقد فتح "أماري" باباً رائعاً لدراسة "صقلية العربية" ، دخله بعده ، وبثقة ، عدد من المستشرقين ، والمؤرخين العرب ، واتجهت الأذهان منذ ذلك الحين ، الى متابعة تراثها الغني ، ولاسيما الفكري والمخطوط منه ، في كل بقعة قد يكون ثاوياً فيها ، وذلك حتى تكون صورة "الحضارة العربية الصقلية" أشد وضوحا ، وأحرّ لونا . وماأخالني أضيف جديداً ـ وجميع الحضور ممن كرّس قسطا كبيرا من جهده ، وعمله للبحث والتقصي في المدنية العربية الصقلية ـ اذا قلت ، أن الاهتمام قد انصب على ملاحقة كل مايمكن أن يكون العرب الصقليون قد خلفوه في ميادين المعرفة المختلفة ، من أدبيات شعرية ونثرية ، ومن علوم دينية وماتحتويه من فقه ، وتفسير ، وحديـــث وقراءات ، ومن علوم لغوية وماتشمله من نحو ، وصرف ، ودراسات لغوية ، ومن علوم طبيعية ،

وريا نية ، وطبية ، وجغرافية ، وتاريخية ، ومن معارف فلسفية وتصوفية . واتضح للباحثين أن الفكر العربي الاسلامي الثرفي صقلية ، قد انتج ازاهير وثمارا من كل لون ، كسهولها الخصيبة المعطاء .

وفي الحقيقة ، لم تثر دراسات المستشرق " أماري " ووثائقه بحوثا حضارية فحسب بل حفزت التمحيص في ميدان " التاريخ السياسي " لصقلية ايضا : فألقيت اضواء كاشفة على فتح العرب لها ، وعوامله ، ومراحله (٢١٢ — ٢٩٠ هـ/ ٨٢٧—٩٠٢م) ، وعلى الدول الاسلامية التي تناوبت الحكم فيها ، من : " اغالبة " سادوها خلال الفتح وفترة صغيرة بعد اتمامه (٢١٢—٢٩٧هـ/ ٨٢٧—٩٠٩ م) ، " فاطميين " تغلبوا على سلفهم (٢٩٧ — ٣٥٩ هـ/ ٩٠٩ — ٩٧٠) ، " فكلبيين " ، تحت السيادة الفاطمية (٣٥٩ — ٤٣٢ هـ/ ٩٧٠— ١٠٤٠ م) ، " فامراء طوائف " (٤٣٢— ٤٨٤ هـ/ ١٠٤٠— ١٠٩١ م) ، تقاسموا الجزيرة بقواتهم العسكرية ، ومزقوا الوحدة السياسية للحكم العربي الاسلامي فيها ، ومهدوا بصراعاتهم لانتزاع " النورمنديين " لها . وقد أسهم المؤرخون العرب مع الاوربيين ، في الاشادة بحكم ملوك النورمان في صقلية ، لتبني هؤلاء ، من امثال " روجر الاول " ، و" روجر الثاني " (٥٢٣ — ٥٤٩ هـ/ ١١٣٠ — ١١٥٤ م) و " ويليام الاول "(٥٤٩هـ—٥٦٢هـ / ١١٥٤— ١١٦٦) و" ويليام الثاني "(٥٦٢هـ — ٥٨٠هـ/ ١١٦٦—١١٨٩ م) ، الحضارة العربية بشتى مظاهرها — ماعدا الدين — ، مما حفظ على صقلية تراثها العربي ، وجعله يستعمق بسلام في نفوس جميع الصقليين ، كما حفزوا ترجمة المدّون منه ، ومن التراث العربي بمجموعه ، الى اللغة اللاتينية . فتألقت صقلية في

عهدهم بحضارة زاهية ، التقت في صعيدها الحضارة العربية بالحضارات اليونانية والرومانية ، وامتزجت بانسجام عجيب ، الاساليب المعمارية العربية ، والبيزنطية والنورمندية(١) .

وخصّ هؤلاء المؤرخون انتقال الجزيرة الى أيدي "آل هوهنشتاوفن" من الاباطرة الجرمن ، وشخصية " فردريك الثاني " (٥٩١ ــ ٦٤٨ هـ / ١١٩٤ ــ ١٢٥٠ م) بالذات ، بأبحاث مستفيضة : فقد شدّد هذا الامبراطور ، بتصرفاته الموالية للحضارة العربية والسابقة لعصره ، انتباههم وفضولهم ، ولا سيما أنه كان صاحب " الحملة الصليبية " المشهورة التي حصل خلالها ، ودون جهد حربي يذكر ، على "القدس" من الملك الكامل الايوبي . هذا الامبراطور ، الذي تربى في احضان الثقافة العربية في صقلية ، وتغذى بكل افانينها ، فتابع بحزم ، خطا أجداده النورمان ، في الاغتراف من معينها ، لا في المحيط الصقلي وحده ، وانما في البقاع الاخرى كذلك ، التي نمت فيها تلك المدنية وأثمرت ، أكان في الشرق العربي ، أو المغرب العربي . ثم سعى لنشر الفكر العربي " بكل معطياته ، في انحاء اوربا ، عن طريق حثه قدما ، حركة ترجمة المدون منه الى اللغة اللاتينية . فمدّ بذلك " العصر الصقلي (٢)" للترجمة الذي ابتدأ من منتصف القرن الحادي عشر تقريبا ، وتواصل الى أواخر القرن الثالث عشر .

1- Carl Grimberg, AuCoeur du Moyen Age(Col.Histoire universelle) Adaptation Française sous La direction de Dumont.
Universite. Verviers. S.D.P.127

سيشار الى هذا المصدر في الصفحات التالية بكلمة "Grimberg"

(٢) انظر ، جلال مظهر : اثر العرب في الحضارة الاوربية (بيروت ١٩٦٧) . وحث " عصر الترجمة من العربية الى اللاتينية)ص ١٦٩ فما بعد . وقد قسم عصر الترجمة الاوربي هذا الى عصرين : العصر الصقلي ، والعصر الاندلسي . ويرى ان " العصر الصقلي " منه كان بداية التأثير العميق للثقافة العربية ، ونشوء حركة الاستعراب الفعالة في أوربا . ص ١٨٣ .

فقد عمل على اقالة مركز " سالرنو " الطبي (٣) من عثرته ، وانشأ جامعة نابولي " التي غدت اشبه

---

(٣) كان في مدينة " سالرنو " على البر الايطالي المجاور لصقلية ، مدرسة أسقفية ، ترجع نشأتها على الارجح الى القرن التاسع الميلادي ، والى ماقبل الفتح العربي لصقلية وجنوبي ايطاليا • وكانت تدرّس بمخطط ، وعلى النمط السائد منه في بدايات العصور الوسطى في اوربا • ويبدو أن العرب عند قدومهم الى جنوبي ايطاليا ، أحيوا تلك المدرسة و " بدأ المعلمون يفدون اليها ، وبدأت تعاليمهم تنتشر ، وأصبح تأثيرهم ملموسا ظاهرا قبل بداية عصر الترجمة " (مظهر : المصدر السابق • ص ١٨٤) •

وقبل بدء الحروب الصليبية برزت في تلك المدرسة شخصية عربية الأصل ، كان لها اثرها في نقل المعرفة الطبية العربية الى اللاتينية ، وهي شخصية قسطنطين الافريقي " (١٠١٥ — ١٠٨٧) ، الذي ولد في قرطاجنة (تونس) ، وتنقل في الشرق والغرب ، ثم استقر في سالرنو سكرتيرا لروبير فيسكار " النورمندي ، ودرس في مدرسة " سالرنو " الطبية ، وقد يكون ذلك خلال غزو النورمانديين لجزيرة صقلية • ثم اعتزل بعد قليل في دير " مونت كاسينو " ، وذلك عام ١٠٧١ • وفي الدير قضى بقية حياته ، يترجم مؤلفات طبية ، يونانية وعربية ، الى اللاتينية • ومع ان تراجمه ثبتت رداءتها ، الا أنها لاقت قبولا في ذلك الوقت في العالم اللاتيني •

ولما كانت " سالرنو " هي الميناء الذي استخدمه الصليبيون في غدوهم ورواحهم الى الارض المقدسة ، فقد انتقلت اعرافها الطبية العربية الى مختلف انحاء اوربا ، واجتذبت مدرستها عددا من الدارسين • وكان من زوارها الشهيرين " أديلار الباثي " (في القرن الثاني عشر) ، الذي ترجم النسخة العربية لاقليدس الى اللاتينية وألف مختصرا في العلوم العربية •

ويبدو أن المدرسة مالت الى الضعف بعد ان استباح الامبراطور "هنري السادس" " والد فردريك الثاني " حمى سالرنو عام ١١٩٤ • الا أنها عادت الى الانتعاش ، ورأت في عهد " فردريك الثاني " مرحلة اخرى من الازدهار • اذ سمح للمفكرين الاحرار ، من جميع الاديان ، بان يدرسوا فيها جنبا الى جنب • وقد طرقها طلاب من كل حدب ، ومن النساء والرجال وتخرج منها عدد من الطبيبات والاطباء الذين اشتهر اسمهم في ميدان الممارسة الطبية العملية ، وفي ميدان التدريس ، والتأليف • هذا مع العلم أنه كان في سالرنو كذلك مدرسة للقبالة • وتحت تأثير مركز سالرنو الطبي أصدر "فردريك الثاني " قوانينه بحجب ممارسة مهنة الطب عن كل من لم يتابع بنجاح دروسه في جامعة سالرنو • وكانت الدراسة الطبية فيها تتخلل ثماني سنوات : يدرس الطالب في السنوات الثلاث الاولى " الانسانيات " ، وتكريس السنوات الخمس التالية للجراحة • وعلى الاطباء المتخرجين ان يجروا تدريبا عمليا بالقرب من طبيب معروف •

ولقد ثبت من الدراسات اليوم ان افكار ابن رشد وفلسفته قد انتشرت في مدارس باريس عبر اطباء درسوا في سالرنو وأن طب هيبوقراط " وتعاليق المسلمين عليه ، قد ذاعت من خلال هذا المركز الطبي وعبر جامعة مونبيليه في فرنسا — انظر حول مركز سالرنو :

-Grimberg, Op. eit, P.266

-E.Perroy, Le Moyen Age, Paris1961 .PP.382 ,388

(٣) كان في مدينة " سالرنو " على البر الايطالي المجاور لصقلية ، مدرسة أسقفية ، ترجع نشأتها على الارجح الى القرن التاسع الميلادي ، والى ماقبل الفتح العربي لصقلية وجنوبي ايطاليا • وكانت تدرس بمخطط ، وعلى النمط السائد منه في بدايات العصور الوسطى في اوربا • ويبدو أن العرب عند قدومهم الى جنوبي ايطاليا ، أحيوا تلك المدرسة و " بدأ المعلمون يفدون اليها ، وبدأت تعاليمهم تنتشر ، وأصبح تأثيرهم ملموسا ظاهرا قبل بداية عصر الترجمة " (مظهر : المصدر السابق • ص ١٨٤) •

وقبل بدء الحروب الصليبية برزت في تلك المدرسة شخصية عربية الأصل ، كان لها اثرها في نقل المعرفة الطبية العربية الى اللاتينية ، وهي شخصية قسطنطين الافريقي " (١٠١٥ — ١٠٨٧) ، الذي ولد في قرطاجنة (تونس) ، وتنقل في الشرق والغرب ، ثم استقر في سالرنو سكرتيرا لروبير فيسكار " النورمندي ، ودرس في مدرسة " سالرنو " الطبية ، وقد يكون ذلك خلال غزو النورمانديين لجزيرة صقلية • ثم اعتزل بعد قليل في دير " مونت كاسينو " ، وذلك عام ١٠٧١ • وفي الدير قضى بقية حياته ، يترجم مؤلفات طبية ، يونانية وعربية ، الى اللاتينية • ومع ان تراجمه ثبتت رداءتها ، الا أنها لاقت قبولا في ذلك الوقت في العالم اللاتيني •

ولما كانت " سالرنو " هي الميناء الذي استخدمه الصليبيون في غدوهم ورواحهم الى الأرض المقدسة ، فقد انتقلت اعرافها الطبية العربية الى مختلف انحاء اوربا ، واجتذبت مدرستها عددا من الدارسين • وكان من زوارها الشهيرين " أديلار الباثي " (في القرن الثاني عشر) ، الذي ترجم النسخة العربية لاقليدس الى اللاتينية وألف مختصرا في العلوم العربية •

ويبدو أن المدرسة مالت الى الضعف بعد ان استباح الامبراطور "هنري السادس" " والد فردريك الثاني " حصن سالرنو عام ١١٩٤ • الا أنها عادت الى الانتعاش ، ورأت في عهد " فردريك الثاني " مرحلة اخرى من الازدهار • اذ سمح للمفكرين الاحرار ، من جميع الاديان ، بان يدرسوا فيها جنبا الى جنب • وقد طرقها طلاب من كل حدب ، ومن النساء والرجال وتخرج منها عدد من الطبيبات والاطباء الذين اشتهر اسمهم في ميدان الممارسة الطبية العملية ، وفي ميدان التدريس ، والتأليف • هذا مع العلم أنه كان في سالرنو كذلك مدرسة للقبالة • وتحت تأثير مركز سالرنو الطبي أصدر "فردريك الثاني " قوانينه بحجب ممارسة مهنة الطب عن كل من لم يتابع بنجاح دروسه في جامعة سالرنو • وكانت الدراسة الطبية فيها تتم خلال ثماني سنوات : يدرس الطالب في السنوات الثلاث الاولى " الانسانيات " ، وتكرس السنوات الخمس التالية للجراحة • وعلى الاطباء المتخرجين ان يجروا تدريبا عمليا بالقرب من طبيب معروف •

ولقد ثبت من الدراسات اليوم ان افكار ابن رشد وفلسفته قد انتشرت في مدارس باريس ، وأطباء درسوا في سالرنو ، وأن طب هيبوقراط " وتعاليق المسلمين عليه ، قد ذاعت من خلال هذا المركز الطبي وعبر جامعة مونبيليه في فرنسا — انظر حول مركز سالرنو :

-Grimberg, Op. eit, P.266

-E.Perroy, Le Moyen Age, Paris1961 .PP.382 ,388

مظهر — المصدر السابق • ص ١٨٤ فما بعد •

اميل لودفيغ — البحر المتوسط • تعريب عادل زعيتر (مصر ١٩٥٢) ص ٥١٤ للطالب)

— اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية (اعد الكتاب باشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الامم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) • الهيئة المصرية للتأليف والنشر • القاهرة ١٩٧٠) ص ٢٨٧ •

بأكاديمية لنقل العلم والمعارف العربية الى العالم الاوربي ، ولاسيما الطبية ، والرياضية ، والفلسفية ، وفلسفة " ابن رشد " منها بصفة خاصة .

ولقد أكد جميع الباحثين ، من العرب وغير العرب على السواء ، وفي جميع المجالات الآنفة الذكر أن عقلية بحضارتها العربية المتألقة ، كانت جسرا حضاريا حيا — كما هي جسر جغرافي طبيعي — نقل الحضارة الاسلامية الى أوربا ، وكان له دوره الكبير في بعث حركة النهضة فيها .

الا أنه خلال تلك الدراسات الحديثة لعقلية العربية ، أكاد لا ألمح ، في حدود معرفتي ، دراسة متكاملة ، مكرّسة للمرأة فيها ، وفعالياتها الحضارية والسياسية ، وان كان هنا وهناك لمحات واشارات الى بعض نشاطها ومظاهر حياتها . وقد يتساءل ، لم تخص المرأة بالذات بدراسة منفردة ؟ اليس في هذا المطلب تحيّز لجنس المرأة ، ينساق الباحث التاريخي فيه وراء قضية معاصرة ، مثارة عالميا اليوم ، عن المرأة وانجازاتها عبر التاريخ ولاسيما أننا لم نبعد كثيرا بعد عن العالم الأمّي الذي خصص لها ؟ وبذلك يكون عاكسا للحاضر على الماضي ، ومتطلا ، الى حد ما ، من القواعد الوضعية والموضوعية للدراسة التاريخية ؟ ولا أخشى سرا اذا قلت ، بأنه قد يكون في الشطر الاول من هذا التخمين صحة فأنا مهتمة فعلا بدراسة المرأة في في التاريخ العربي خلال أدواره المختلفة . ولكن قد لا يكون هذا اندفاعا وراء ذاتيتي كامرأة ، او انسياقا وراء قضية معاصرة ، وانما لأنني اعتقد وموضوعيا ، ودون تحيز أو هوى ، أن المرأة ، قد تكون ، وبالنسبة للماضي بالذات ، وقبل ان تطرأ على الحياة بصفة عامة ، وعلى حياتها بصفة خاصة ، هذه التطورات الحاضرة ، ناقلا أمثل للحضارة وجسرا انسانيا حيا ، وفعالا لعبورها ، وتمازجها ، ودمجها ، وحافزا ، ظاهرا وخفيا ، لشتى الابداعات فيها ، بل ومنتجا في ميدانها . اذ ان المرأة بمعايشتها الانسان ، لصيقا ،

منذ رشيميته الحياتية الاولى ، ووجودها المستمر والفاعل ، في كل مناحي الحياة العمارية وفعالياتها ، ولا سيما الاقتصادية والاجتماعية ، قد تكون اجدى في تثبيت قيم الحضارة ، وبثها ، من الانسان الرجل .

وفي الواقع ، قد يكون غياب بحث متكامل عن " المرأة في صقلية العربية " ليس من باب الاهمال ، أو الغفلة ، وانما لافتقار المصادر حول هذا الموضوع ، أولندرتها فمن المعروف ان المؤرخين العرب والغربيين على السواء ، لم يبدوا اهتماما بتقصي أخبار المرأة في تلك الحقبة من الزمن ، تقصيا متوازنا مع اهتمامهم بتقصي أخبار الرجل ونشاطه ، وذلك لعوامل عديدة ، قد لايكون هذا المجال الضيق مكانا لمناقشتها . فشأنها في هذا الميدان ، شأن كثير من العاملين والمنتجين في الساحة الحضارية ، الذين بقوا مجهولي الاسم ، على الرغم مما يمكن أن يكونوا قد قدموه لهذه الحضارة من فعاليات قيّمة . فما اخال أمر المرأة في " صقلية العربية " الا كأمر اولئك العرب المسلمين الصقليين — وضمنهم المرأة بالطبع — الذين " نشلوا زراعة صقلية وصناعتها من الانحطاط الذي كانتا فيه ، وأدخلوا اليها زراعة القطن ، وقصب السكر والدردار[٤] . والنخيل ، والليمون ، والبرتقال ، والارز ، وأنبتوا على ارضها الخصبة ، التفاح والبندق ، والأجاص[٥] ، والبربير (البردي[٦]) ، وحفروا فيها الترع والقنوات التي

---

(٤) غوستاف لوبون : حضارة العرب . تعريب عادل زعيتر (القاهرة ١٩٥٢) . ص ٣١٠

(٥) أماري : المكتبة العربية الصقلية . (ليبسك ١٨٥٧) تصوير مكتبة المثنى في بغداد . د . ت) ص ٨٢ (عن رحلة ابن جبير) .

(٦) ابن حوقل : صورة الارض . جزءان . ج ١ ص ١٢٣ والمكتبة العربية ص ٨—٩ .

لاتزال باقية ، وانشأوا فيها المجارى المعقوفة التي كانت مجهولة قبلهم " [٧] ، وولدوا تلك التقنيات المستجدة في زراعة القطن [٨] ، والبصل [٩] ، الذى اشتهرت بـــه صقلية [١٠] فخياب اسم المرأة من حضارة صقلية العربية ، هو اذا في العقيقة ، كخياب اسماء اولئك الذين غزلوا القطن كذلك ، والحرير ، والكتان ، ونسجوها ، تلك الانسجة الرائعة ، التي لانزال نملك بعض نموذج منها [١١] ، والتي يحدثنا ابن حوقل " ، الكاره لكثير من أنماط الحياة في صقلية ، عن الكتاني منها ، بأنه لانظير له في جودته [١٢] والذى اشتهر على مايبدو ، في عالم ذلك الوقت ، بالصقلي [١٣] وان ذلك الخياب هو ايضا ، كخياب اسماء اولئك الذين أقاموا مصانع السكر ، والارحية المنتشرة في كل بقعة من بقاع صقلية ، ودبغوا الجلود ، وصنعوا الطوامير للسلطة الحاكمة من البردى ،

---

(٧) غوستاف لوبون ، المصدر السابق ، ص ٣١٠ .

(٨) المكتبة العربية (عن كتاب ابن العوام : الفلاحة النبطية) ص ٤٥٠ .

(٩) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها .

(١٠) انظر حول البصل ، واكثار أهل صقلية من أكله ، اقوال ابن حوقل في المكتبة العربية ص ١٠ ومانقله عنه ياقوت الحموى في معجم البلدان (دار صادر بيروت) ، مادة : بلرم ، مجلد ٤ ، ص ٤٨٣ .

(١١) في نورنبرغ اليوم رداء من الحرير صنع لملوك صقلية من النورمان ، وهو مطرز بكتابات كوفية ، وقد بين عليه تاريخ صنعه (٥٢٠ / ١١٣٣م) . (غوستاف لوبون ، ص ٣١٠) . كما هناك عباءة صنعت عام ٥٢٨هـ للملك روجر ، زخرفت بنخلة على جانبيها اسدان منقضان على جملين وعلى حاشيتها كتابة بالعربية .

(احسان عباس : العرب في صقلية ، (القاهرة ١٩٥٩) ، ص ١٤٦ـ١٤٧) .
وقد كان (ديوان الطراز) هو الذى يقوم بصنع تلك الملابس الملكية .

(١٢) ج ١ ، ص ١٣١ ، المكتبة العربية ، ص ١١ و ص ٣٣ (من كتاب الشريف الادريسي : نزهة المشتاق) .

(١٣) احسان عباس ، المصدر السابق ص ٧٤ استنادا الى المقريزي : الخطط ، ج ٢ ص ١٦٤ .

وقتلوا الحبال منه [١٤] ، وبنوا السفن ، وصادوا سمك التن [١٥] ، والمرجان ، بسل وصبغوا الأقمشة ، تلك الصباغات الجميلة ، التي يظن بأنها أول ما انتقلت الى أوربا ، كان ذلك عن طريق صقلية . [١٦] أو كمثل أولئك الذين استخرجوا من أرض الجزيرة الغنية ، الفضة ، والحديد ، والنحاس ، والكبريت ، والرخام ، والغرانيت وغيرها " بأساليب فنية " [١٧] ، ان افتقاد اسم المرأة في بنية الحضارة العربية الاسلامية في هذه الجزيرة الفيحاء هو ايضا كافتقاد اسماء اولئك الذين صمموا هندسة المساجد والقصور البديعة ، ورفعوا عمدها بأيديهم ، وزينوها بالرخام والفسيفساء ، وأثثوها بأفخر الرياش ، فجاءت تحفة للناظرين ، ونصبوا القلاع وحصنوها ، وزرعوها في كل موقع هام من صقلية ، حتى أربت على ثلاثمائة وعشرين قلعة ، تحرس ثلاثا وعشرين مدينة [١٨] . أو كاولئك الذين جابوا على مراكبهم بثقة عواف البحر المتوسط متاجرين وغازين . فكل هؤلاء لم يذكر التاريخ اسماءهم ، مع انهم اوجدوا تغييرا ثوريا في الاقتصاد الزراعي الصقلي والصناعي/ [١٩] ، شأنهم شأن المرأة في صقلية ، التي لابد انها قد شاركتهم جميع تلك الاعمال ، بالفكر والفعل ، هذا بالاضافة الى انتاجها ، وتكوينها ، العالم ، والفقيه ، والشاعر ، والمجاهد ، والعامل في كل ميدان .

---

(١٤) المكتبة العربية ص . ٨ — ٩ .

(١٥) المصدر نفسه . ص ٣٣ (عن الشريف الادريسي) .

(١٦) غوستاف لوبون . المصدر السابق . ص ٣١٠

(١٧) المصدر نفسه . الصفحة ذاتها .

(١٨) Aziz Ahmad , A History of islamic Sicily(islamic Surveys
Edinburgh University Press. 1975 . P. 39

(١٩) Ibid , P. 38

ان هناك في الواقع ، شحا كبيرا في المصادر حول المرأة في صقلية العربية ، وبخلا من مؤرخينا العرب الماضين في طرح اخبارها . وقد يدهش المرء ، وهو يستعرض اسماء النابهين في صقلية ، عندما يطالعه اسم امرأة ضمن الانتاج الفكري بعمومه ، حتى ولاخلال الانتاج الشعري منه ، مع أنه من المنتظر ، أن يكون هناك عديد من الشاعرات شأن الشاعرات الكثيرات نسبيا في التاريخ العربي ، وفي الاندلسي بالذات ، ولاسيما ان الطبيعة في صقلية ، بسهولها الخضراء المنمنمة بشتى الزهور ، ومياهها المتدفقة ، وجنانها الزاهية ، ووجوها الحضاري بكل عبقه الزكي ، حافز قوي على تفتيق الشعر لديها كاختها الاندلسية .

ومع ضآلة المعطيات التي بين يدي عن المرأة في صقلية العربية ، فقد حزمت الامر على أن أطرق الامر ، في ملتقانا هذا ، علّه يستوفى في المستقبل ، ويتكامل ، ولعل توصية تصدر من هذا المؤتمر بمتابعته ، وتوجيه الانظار اليه ، لأهميته ضمن محتوى بعث التراث العربي الصقلي .

لقد لجأت الدراسات التاريخية ـ الاجتماعية الحالية ، عندما اعياها صمت المؤرخين عن كثير من القضايا الاجتماعية ، الضرورية لبناء "التاريخ الكلي" للمجتمع ، ومنها اوضاع المرأة بالذات ، الى ارشيفات الوثائق الرسمية ، ولاسيما منها ارشيفات المحاكم ، تستنطق وثائقها . ولابد أن صقلية ، ملكت في ماضيها العربي ، الكثير من هذه الوثائق . لأن جميع الحكومات العربية التي تعاقبت عليها ، نظمت دوائر الحكم فيها ، على نمط الولايات العربية المختلفة ، وزودتها بعدد من الدواوين والمؤسسات التي استخدمت بالطبع التوثيق الكتابي في امورها ، جريا على العرف العربي في

---

(٢٠) انظر . احسان عباس . المصدر السابق . ص ٥٥ ـ ٥٦ .

توثيق الدولة . بل أن تلك السجلات التي أطلق عليها اسم "الدفاتر" والمتخلفة الى الآن ، قد تنبئنا ببعض شؤون المرأة ، لو استقرئت عن الموضوع . ولا اعرف في الواقع ، اذا كانت وثائق القضاء العربي الصقلي لاتزال موجودة ، أم أتلفتها عوامل الطبيعة والظروف المختلفة ، شأن مجموع الوثائق العربية الرسمية في مختلف البقاع وقد يتساءل ، وكيف يثبت انها كانت موجودة في يوم من الأيام ، اذا كان لاأثر لها ؟ وفي الحقيقة يبقى الأمر "تخمينا قويا" ، لسببين : أولهما أن القاضي في صقلية خلال الحكم العربي ، كان أهم شخصية بعد الوالي ، وله دار خاصة لاقامة العدل ، كما له كتبة(٢٢) وأن هذا القاضي بقي قائما . للاشراف على شؤون المسلمين بعد وقوع صقلية بيد النورمان (٢٣) . هذا بالاضافة الى ان النورمنديين اقتبسوا عن المسلمين "ديوان المظالم" الذي كان ينظر في شكاوى الناس(٢٤) ، ولابد ان لتلك الدوائر القضائية وثائقها . وثانيهما ، ان التوثيق في صقلية كان نامياً ، اذ كان فيها كتاب للعهود

---

(٢١) هي سجلات تبين الاقطاعات ، والأراضي القابلة للزراعة والمستثمرة ، وغير المستثمرة وهي مرفقة بقوائم عن أقنان الارض (وجلهم من المسلمين) ، والخدمات التي كانوا يقومون بها في العهد النورماندي . ويبدو أنها وليدة "ديوان تحقيق المعمور" ويسمى باللاتينية Donania de secretis

وتدل التسمية مع تسمية "الدفاتر" على الاصالة العربية . ويرجع بعض هذه السجلات الى عهد "ويليام الثاني" النورمندي ، وهي بالعربية وبعضها باليونانية . ويشير المؤرخ "عزيز احمد" الى أن مثل هذه الدفاتر كان منها عند البيزنطيين ، فالفاطميين ، فالكلبيين ، وعنهم ورثها الامراء النورمنديون . ولها مايماثلها في وثائق الكلترة في العصور الوسطى .

- احسان عباس . المصدر السابق . ص ١٤٧
- نيقولا زيادة . صور من التاريخ العربي (مصر ١٩٤٦) ص ٩ .
- Aziz Ahmad , op . cit , P. 66

(٢٢) احسان عباس . المصدر السابق . ص ٥٣ ، ٥٥

(٢٣) المكتبة العربية ص ٩٢ (عن ابن جبير) .

(٢٤) المصدر نفسه . ص ٣٧٨ (عن ابن الاثير . الكامل في التاريخ ١٢ جزء . مصر . ج ١٠ ص ٦٨)

والوثائق ، كان يطلق عليهم صفة " الوثائقيين " . ويعلق الدكتور عباس " عليهم بقوله:

" انهم طائفة مهمة في الحياة اليومية ... وكانت صناعتهم قد اتخذت لها اصولا .. وقد يكون ألف في بابها ليهتدي المبتدئون الى مايريدون معرفته من هذا الفن " على غرار ما ألفه " ابن الهندي القرطبي "(٢٥) . فلنبحث اذا عن تلك الوثائق قبل ان نقرعدم وجودها او ضياعها .

وقد تتضمن الوثائق التي جمعها المستشرق " اماري " (٢٦) عددا مما يمكن ان يفيد في البحث عن المرأة ، ولكن مع الأسف لم تتح لي فرصة وجودها في مكتبات دمشق وهذه فرصة كي اقترح على مؤتمركم الجليل ، امكان اصدار توصية باعادة طباعة مؤلفات " اماري " عن صقلية أو تصويرها ، مع كل ملحقاتها ، وبحث البلاد العربية والاسلامية بخاصة على اقتنائها وتوفيرها لكل مكتباتها ، بل وتكوين مكتبة خاصة بصقلية واسبانيا العربيتين ، تضم كل المصادر السابقة حولها ، وجميع مايؤلف في كل بقعة من العالم ، وبمختلف اللغات ، في ميدانيهما .

---

(٢٥) احسان عباس المصدر السابق . ص ١١٢ .

(٢٦) الوثائق التي تضمنتها في مختلف مؤلفاته حول صقلية المسلمة مثل كتابه عن " تاريخ المسلمين في صقلية " و " النقوش الكتابية العربية في صقلية " ، والكتابات العربية في العصر الملكي في مسينا "

- Storia dei Musulmani di sieilia . 3 Vols.
- Le Epiguegi Arabiche di Sieilia ,
- Su Le iscrizioni arabiche de Ipolazze Regio de messina .

ما اخالني في كل ما تحدثت عنه حتى الوقت الحاضر ، الا متبعا الاسلوب العربي غير المحبب في التاريخ ، ألا وهو اسلوب الاستطراد . الا أنني قد أكون في هذه المرة ، ولمرة واحدة ، مع قول مؤرخنا الدمشقي المحبي " في قوله : " لقد أطلقنا عنان القلم في ميدان المداد ، وان كان ليس من شرطنا المراد ، اذ الحديث شجون ، والكلام يجر بعضه بعضا (٢٧) ." فلنرجع الآن الى " المرأة في صقلية العربية " ولأقر بأن ما املكه من المعطيات ، لا يكوّن بأي حال ، صورة واضحة القسمات عن المرأة في الجزيرة : الحرة والأمة منها على السواء ، المسلمة وغير المسلمة ، العربية وغير العربية ، من لمباردية ويونانية ، ونورمندية . فهذه المعطيات قد ترسم بخطوط باهته جدا ، وبلونات ، ملامح " صور " متفرقة ومشتتة للمرأة ، وقد تظهر دون تركيز ، مسؤوليتها المباشرة او غير المباشرة ، في أحداث فاصلة في حياة الجزيرة . ومن هذه الصور ، ما كان لامرأة بعينها ، عرفت هويتها ، وبان عملها ، ومنها ما كان للمرأة بصفة عامة .

اما الصور الاولى ، فتتلاحق ثلاثا في شريط تاريخ صقلية : أولاها عند فتح العرب لجزيرة البركان ، وثانيتها عند خروجها من يدهم ، وثالثتها قبيل اقتلاع جذورهم نهائيا منها ، وكلها احداث فاصلة في قصة العرب في الجزيرة .

ففي فتح العرب لصقلية ، تبدو المرأة الصقلية وكأنها هي السبب البعيد في جذب العرب لفتح الجزيرة المتوسطية الخصيبة . والغريب ، أن هناك تشابها واضحا بين الرواية الواردة في هذا الباب ، وبين تلك التي نسب اليها اندفاعهم لفتح

---

(٢٧) المحبي : هو محمد الامين المحبي (١٠٦١ - ١١١١ هـ/ ١٦٥١ - ١٦٩٩) مؤرخ القرن الحادي عشر في كتابه المشهور " خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر " . (٤ جزء القاهرة ١٢٨٤ هـ) . ج ٤ ص ٤٦٤

اسبانيا . فمثلما كان " يوليان " حاكم سبتة ، هو محرض المسلمين على فتح شبه الجزيرة الايبرية ، كان " فيمي " أو " اوفيموس " القائد البحري لجزيرة صقلية في ظل الحكم البيزنطي ، هو محرض الأغالبة في افريقية على اجتياز البحر اليها . ومثلما كانت قصة اغتصاب ملك اسبانيا " لذريق " لـ " فلوريندا " ابنة " يوليان " ، هي التي قادت خطوات هذا الاخير لطلب مساعدة العرب في فتح اسبانيا القوطية انتقاما ، فان قصة " فيمي " مع " هورمونيزا " الراهبة التي أحبها وتزوجها غصبا عنها (٢٨) ، كانت هي الاخرى في الخلفية البعيدة لاندفاعة فيمي نحو الاستنجاد بالأغالبة . فالروايات الغربية تذكر أن فيمي هذا ثار على امبراطوره البيزنطي " ميخائيل الثاني " (٨٢٠ — ٨٢٩ م) ، حينما أمر هذا الاخير واليه في صقلية (ستراتيجوس) ، الأمير قسطنطين ، بجدع انف فيمي ، وذلك بعد أن وصلته شكاوى أهل هورمونيزه . وقد استطاع " فيمي " بمساعدة قواته البحرية ان يتسلم الحكم في الجزيرة ، ويعلن نفسه امبراطورا . الا أن فئة موالية للامبراطور ميخائيل الثاني " تمكنت من هزيمته ، فالتجأ الى الأغالبة ، يحفزهم على غزو صقلية ، علّه يحتلها ثانية منهم وتحت سيادتهم . وتضيف بعض المصادر أن النزاع بين قسطنطين وفيمي يرجع في واقعه الى رغبة قسطنطين في هورمونيزا (٢٩) ، ولذا فقد حاك ماحاك لانتزاعها منه ، وبذلك تولدت تلك الثورة النفسية الناقمة في نفس فيمي .

ولا يميل المؤرخون الوضعيون عادة الى الاكتراث بمثل هذه الروايات في تعليل الحوادث الحاسمة في التاريخ ، وينظرون اليها على انها روايات خيالية ، وشخصية .

---

(٢٨) احسان عباس . المصدر السابق . ص ٣٢ . و

Aziz Ahmad , Op. cit , P.6

(٢٩) احسان عباس . ص ٣٢

وبهذه الروح تم الحكم على قصة يوليان وابنته في فتح اسبانيا (٣٠) فمثل هذه الروايات ذات الطابع الادبي والآتي ، لايمكن ان يتساوى في قدرته الحركية ، مع تطلعات العرب المسلمين العقائدية في تثبيت رسالة الاسلام ونشرها ، ولا مع مطامحهم الستراتيجية ، والاقتصادية ، وهي عوامل ذات صبغة مستديمة وشبه ثابتة . كما انهـا لاتتوازن مع واقع مطامع فيمي ، في الاستقلال بالجزيرة ، ولاسيما بعد أن رأى بأم عينه نجاح العرب في فتح كريت والاستقرار فيها (٣١) . الا أن هذه الاسباب الجوفية البعيدة ، التي قد تبدو تافهة للمؤرخ الوضعي او المادي ، لايمكن أبدا أن تهمل ، لأن العوامل النفسية العاطفية تبقى ذات دور هام وفعال في سير التاريخ مع كل تجاهل المؤرخين لها . ولكن اذا كانت قصة الحب تلك ، محرضا لفيمي كي يطلب النجدة من العرب لاستخلاص الجزيرة ، فانها ليست بالتأكيد العامـــل التحريضي للعرب في اتجاههم نحو الجزيرة فاتحين . ولسنا هنا مع متابعة عوامل الفتح العربي لصقلية ، الا أنه يمكن القول ، أنها كانت في مرتكزاتها العقائدية حضارية الاولى ثم جاءت العوامل الاخرى الستراتيجية والاقتصادية لاقّـة حولها ومكمّلة .

ان تثبيت القيم الانسانية للاسلام ونشرها ، كانت دائما في القلب من كل فتح خاضـه العرب . وان الحوار الشائق الذي دار بين المسلمين الذين غزوا صقلية في عهد

---

(٣٠) R. Menendez Pidal, Glor Nueva de Romances Viejos, Buenos Aires 1963

(تصوير " احمد بدر : دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها من الفتح حتى الخلافة . دمشق ١٩٧٢ . ص ١٥)

PP. 39 - 51 .

A. Ahmad , Op. cit, P. 6 ؟

الخليفة "عثمان بن عفان "، وبين حاكم الجزيرة البيزنطي ، والذي رواه المؤرخ "الواقدي" (٣٢) . ليوضح بعمق هذا الامر . وكذلك فان الكلمة التي وجهها الفاتح الاول لصقلية "اسد بن الفرات" وهو يغادر "سوسة" في طريقه الى الجزيرة ، لتدعم هذا القول (٣٣) .

واذا كانت امرأة صقلية تكمن بعيدا وبعيدا في فتح العرب لصقلية ، فان امرأة عربية مسلمة تتراءى من خلال خروج الجزيرة من يد المسلمين . ويعلق الدكتور احسان عباس على ذلك بقوله : " وتأبى المصادر العربية أن تغلق صفحاتها على صقلية الاسلامية ، دون أن تجعل للمرأة نصيبا في الاسراع بصقلية الى نهايتها المحتومة (٣٤) . وكأني به أراد التلميح الى نظرة السوء ، التي كانت تحيط المرأة،

---

(٣٢) المكتبة العربية ٢٠١ـ٢٠٣ . ومما جاء فيه خطاب المسلم لحاكم صقلية قائلا :

اعلم انما قصدناكم الا أنكم تدخلون في ديننا وتؤمنوا بالله ورسوله ، وتقيموا الصلاة ، وتؤتوا الزكاة ، وتطيعوا الله في امره ونهيه ، وتأمنوا على دياركم واموالكم ، ونولي عليكم رجلا منا يعلمكم شعائر ديننا ، وان ابيتم الدخول في ديننا ، فاقبلوا عهدنا وذمتنا ، وأدوا الجزية الينا ، وقروا في دياركم امنين ، وان ابيتم ما عرضناه عليكم فقد انذرناكم واعذرناكم . (ص ٢٠٢) .

(٣٣) المصدر نفسه . ص ١٨٤ (من كتاب رياض النفوس) . لقد ورد في كلمته مايلي :

" لااله الا الله وحده لاشريك له . والله يامعشر الناس ماولي لي أب ولا جد ولاية قط ، ولو رأى احد من يلقى مثل هذا قط ، وما رأيت ماترون الا بالاقلام . فاجهدوا انفسكم ، واتعبوا ابدانكم في طلب العلم وتدوينه ، وكاثروا عليه ، واصبروا على شدته ، فانكم تنالون به الدنيا والآخرة ."

(٣٤) احسان عباس . المصدر السابق . ص ٤٨ .

من انها السبب في كثير من المآسي - فمن المعروف أن صقلية وقعت في أواخر حكم الكلبيين في صراعات داخلية أدت الى انهاء عهدهم ، واستقلال عدد من قادة الجيش في حكم المدن الصقلية ، شأنها في ذلك شأن اسبانيا في عهد ملوك الطوائف . وكان بين امار الجند ، ومن اقواهم ، علي بن نعمة " المعروف " بابن الحواس " ، وكان قد وقع تحت سلطانه مدينتا " قصريانة " و " جرجنت " ، و " ابراهيم بن الثمنة " الذي سيطر على " سرقوسة " ، وتلقب " بالقادر بالله " . وكان ابن الثمنة قد تزوج من اخت ابن الحواس " ميمونة " ، بعد مقتل زوجها " ابن المكلاتي " امير قطانيا . وتذكر المصادر العربية أن " ابن الثمنة " سكر يوما " فتخيل له من زوجه شيء فتشاجر معها وأمر بقصدها . وكره ابنه هذا التصرف ، فاستدعى لها الاطباء ، وعولجت حتى شفيت ، واعتذر لها زوجها عما بدر منه . الا أنها لم تلبث أن استأذنته لتزور أخاها " ابن الحواس " ، فأذن لها . وعندما قصت على اخيها ماحدث ، اقسم بألا يرجعها اليه ابدا . ولما ألح زوجها بعودتها اليه ، تصلب ابن الحواس في منعها فأشهر ابن الثمنة العرب ، وحاصر قصريانة ، الا أنه اخفق . وبدا له كأن صقلية كلها قد انسلت من بين يديه ، وانقادت الى ابن الحواس . وفي لحظة يأس وأمل استنجد ، بالنورمان في جنوبي ايطاليا . وكان هؤلاء قد تركزوا هناك وشرعوا يرنون بأبصارهم الى الجزيرة الخصبة . ووجدوا في دعوة ابن الثمنة حافزا لغزو الجزيرة ، وانتزاعها من العرب المنقسمين على أنفسهم . ودخل النورمان صقلية في عام ٤٥٢ هـ/ ١٠٦٠ م ، واستخلصوها جزءا جزءا من يد العرب ، ولمدة ثلاثين عاما .

---

(٣٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ٧ اجزاء (بيروت . د . ت) . ج ٤ ص ٢١١ (المكتبة العربية ٤٨٤) .

وهكذا كان فتح العرب للجزيرة ، وخروجها من يدهم ، بتحريض حادثين كان وراءهما امرأة ، وكان " ابن الثمنة " كهيي قبله ، يلمح بأن الجزيرة ستسلم له بعد فتحها ، هدية!

وثمة اخرى يمر المؤرخون عبورا على هذه الرواية : فهي بالنسبة اليهم عنصر ملطف في العوامل الرئيسة الكبرى ، التي يرونها سببا لخروج العرب من صقلية : كفرقة العرب ، وتطاحنهم فيما بينهم ، ومطامح ابن الثمنة وابن الحواس ، وشره النورمان لمد نفوذهم وسيادتهم على الجزيرة الغنية ، ذات الموقع التجاري والستراتيجي الهام في وسط البحر المتوسط ، وعقدة الاتصال بين اوربا وشمالي افريقيا ، وبين شرقي البحر المتوسط وغربيه . فهذه الرواية هي كالملح للطعام ، يجعله مقبلا وشهيا ، الا أنه لا يكوّن قوامه . ومع ان مضمون السببية في التاريخ يبقى مضمونا غامضا ، وله ملابساته الكثيرة ، نعود فنؤكد أن هذه الامور التي ينظر اليها على أنها امور عاطفية وخيالية ، قد تكون مستبدة احيانا بالنفس الانسانية ، أشد من استبداد الامور العقائدية والاقتصادية والاستراتيجية وغيرها . اذ تبقى حوادث الفرد الذاتية للناس العاديين ، اقوى من تأثير المرتكزات العامة .

واذا كانت المرأة الصقلية تبدو في الحادثين السابقين عاملا ساكنا ، وغير فاعل مباشرة في الاحداث فان الصورة الثالثة لها في النطاق السياسي ، صورة حركية فاعلة ، ولنا اليها عودة في نهاية المطاف .

صور ثلاث خاصة اذاً وصلتنا عن المرأة في صقلية العربية . اما حول احوال المرأة الصقلية بصفة عامة ، خلال الحكم الاسلامي وبعده ، فان المعطيات قد تكون أقل وأندر . الا أنه من المستطاع استشفاف بعض ملامح ، يمكن رسمها بخطوط دقيقة وباهتة ، من خلال بعض الروايات العابرة . وفي الواقع ان اول سؤال يطرح نفسه علينا في هذا المجال ، هل حمل الفاتحون المسلمون زوجاتهم معهم من شمالي افريقيا ،

وكذلك الوافدون منهم بعد ذلك لسكنى الجزيرة ، ألم انهم تزوجوا من سكان البلاد انفسهم . واذا كانت الوثائق تعوزنا حول هذا الموضوع ، فانه يمكن للمتكهن قياسا على حالات مماثلة ، على أن بعض فاتحي الجزيرة ، ومن انتقل من المسلمين الأوائل . قد حمل ازواجه معه ، حينما قرر الاستقرار عليها ، وان كان عدد هؤلاء في ظنـــي قليلا . اذ أن ماتملكه الفاتحون من السبي ، ودخول عدد من الصقليين والصقليات في الاسلام ، قد اضعف عدد المستوردين لنساء من شمالي افريقيا ، وان كان لاينفيه او يعدمه .

واذا ماترك الباحث العرب يستقرون في الجزيرة ، وانطلق يتلمس عبر مصادرهم مايمكن أن يكونوا قد ذكروه عن المرأة والنساء ، فان أول مايلفت انتباهنا عند الجغرافيين بصفة خاصة ، ذكرهم قلعة من قلاع صقلية باسم : قلعة النساء " . وهي لاتبعد عن المدينة الحصينة قصريانة سوى ثمانية عشر ميلا وهي على ماذكر الشريف الادريسي ، قلعة حسنة البناء ، مطلة على عمارات متصلة ، ومنافع جمة ، وغلات واشجار وفواكه (٣٦) . وفي الواقع اذا كانت التسمية ذات اصالة عربية — وانها لتبدو كذلك — فانه لابد أن لهذه القلعة مع المرأة قصة ما حتى حملت هذا الاسم العربي . ولا يشير المصدر العربي الى اسباب هذه التسمية ، مع ولـع الجغرافيين العرب بشرح مثل هذه الامور ، او بما يمكن أن يسمى بعلم اوصاف الاماكن (التوبونيمي) . وقد تذكرنا هذه التسمية بما قيل في مدينة " نسا " بخراسان : بأن المسلمين لما وردوها هرب اهلها ، ولم يتخلف فيها غير النسا ، فلما أرادوا دخولها ، قالوا هؤلاء نساء ، والنساء لايقاتلن ، فننسأ امرها الآن الى ان يعود رجالهن ، فتركوها ومضوا ، فسموا بذلك نساء (٣٧) .

---

(٣٦) المكتبة العربية . ص ٢٠

(٣٧) معجم البلدان ج ١٩ . ص ٢٨١ — ٢٨٢

واذا ماخلفت " قلعة النساء " في صقلية ربما تستطيع مصادر اخرى أن تفصح عن سبب تسميتها وعدنا الى المصادر العربية مرة اخرى ، كي نتبين منها بعض ملامح صور من المرأة في صقلية العربية ، فاننا قد نلمح عدة نماذج تتجاوز التسعة .

النموذج الاول ، هو المرأة المسلمة الوافدة مع رجلها من افريقية ، والمشاركة له في زهده ، وتقشفه ، بل والمكرسة له كل ذاتها وعملها . ويتبين هذا فيما ذكر عن ورود " ابي عمرو ميمون بن عمرو المعلوم " الى صقلية من سوسة ، للقضاء فيها ، وكانت ترافقه " جارية سوداء تغزل وتبيع غزلها ، وتنفق عليه من فضل ذلك (٣٨) " .

والنموذج الثاني ، هو الذي يمكن استشفافه من رواية اخرى ، وردت على لسان احد المجاهدين المسلمين في صقلية (٣٩) . وهو مثل للمرأة المتحمسة للجهاد ، التي تعد استشهاد رجلها من اجل اعلاء كلمة الله شرفا ، وفي عدم موته دفاعا عن الدين عارا . وتنص الرواية كما رواها ابو الحسن الصقلي الحريري " — وهو من كبار الزاهدين المرابطين في الجزيرة (في مطلع القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد) — على لسان احد العاملين في الجهاد وهو " مفرج أبو عبد السلم " ، بأن هذا المتعبد المكافح أصيب بجروح شديدة اثناء هجومهم للعدو ، استشهد خلاله عدد كبير من المسلمين . فرأى او تراءى له وهو في ساح المعركة " سلالم منصوبة من الارض

---

(٣٨) المكتبة العربية . ص ١٩١ — ١٩٢ (عن رياض النفوس) .

(٣٩) منذ أن استقر الأغالبة في شمالي افريقيا ، وقد يكون منذ ان فتح العرب افريقية ، قامت على الساحل الرباطات يقيم فيها المتعبدون الزاهدون ، الساعون في الجهاد لاعلاء كلمة الله . وقد نشطت هذه الرباطات اثناء فتح العرب لصقلية ، بل وانتقلت الى الجزيرة نفسها . وقد اشار ابن حوقل الى عديد منها ، وان كان قد نقد اصحابها نقدا مريرا .

الى السماء ، تنزل عليها حوار ملرأى قط مثلهن ، وبيد كل واحدة منهن منديل اخضر ، فنزلت كل واحدة منهن على صاحبها من الشهداء ، واخذت رأسه جعلته في حجرها ، ومسحت من دمه بذلك المنديل ، ثم رفعته اذ ارتفعت .. فلما نزلت صلحبته ولم تجد ميتا انصرفت مستعزية وهي تقول واشوم يحيا ، والعار عند صواحبي ثم انصرفت (٤٠)

ومع أن الرؤية قد تكون رؤيا محموم ، الا انها تبقى معبرة عن واقع قائم في نفس المجاهد العربي آنذاك عما يمكن ان يكون عليه موقف المرأة المسلمة من جهـاده .

والنموذج الثالث قد يبدو مغايرا للنموذجين السابقين ، وبخاصة للأخير منهما : فهو يمثل المرأة الواقعية التي كانت تعيش حاضرها ووجودها بكل تطلعات الحياة الدنيوية فهي المرأة التي تريد رجلها الى جانبها دوما ، كي يعيشا بسلام بعيدا عن الحرب والقتال ، والقلق والتوتر . ومع أن هذا النموذج للمرأة يتراءى لنا عبر خيالات الشعر ، الا أنه نموذج موجود فعلا في الحياة ، وقد يمثل اغلبية في مجتمع المرأة ، وهو منسجم مع الطبيعة الارضية " في شخصية صقلية — على حد تعبير الدكتور عباس (٤١) ولقد قدم لنا هذه الصورة للمرأة العادية " الامير عمار بن منصور الكلبي " الشاعر . وقد حبكها ، عندما طرح حوارا شعريا ، جرى بينه وبين امرأته المعاتبة ، ضمنه قوله متفاخرا (٤٢) :

---

(٤٠) المكتبة العربية . ص ١٩٦ (عن رياض النفوس) .

(٤١) المصدر السابق . ص ٢٩٩

(٤٢) المصدر نفسه . ص ١٧٨ .

تقول لقد رأيت رجال نجد وما ابصرت مثلك من يمان

ألفت وقائع الغمرات حتى كأنك والوقائع توأمان

وتقتحم الحروب رخي بال كأنك من رداها في أمان

الى كم ذا الهجوم على المنايا وكم هذا التعرض للطعان

فقلت لها لكل الناس عذر ولاعذر لكلبي جبان

والنموذج الرابع للمرأة في صقلية هو مايمكن استخلاصه من آراء متصوف صقلي عن المرأة في عصره . فقد طرح هذا المتصوف وهو الشيخ " ابو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله البكري الصقلي " في كتابه " الانوار في علم الاسرار ومقامات الابرار والمسمى عادة بأنوار الصقلي (٤٣) ، نظرته الى المرأة في منتصف القرن الرابع للهجرة العاشر للميلاد . ويبدو مما ذكر ، أنه استمد تلك النظرة من معاناة عامة كان يعيشها المجتمع ككل في تلك الفترة ويتبين منها ، أن المرأة العربية في صقلية ، قد قوى امرها على رجلها حتى ألزمته طاعتها ، والانسياق لها ، والاستجابة لمطالبها . وأن هذه المرأة لم تعد قابعة في بيتها ، بل تميل الى الخروج منه ، وان عمها اقتناء الحرير والحلي . وقد كره المتصوف العربي هذه الصورة للمرأة ، فحذر الرجل من التأهل بها قائلا : " اذا رأيتم النساء قد اجهدن أزواجهن في اربعة فأطاعوهن ، فاياكم والتأهل بالحرائر ، فان فتنتهن يومئذ عظيمة . الحرير والحلي والخروج والخمر (٤٤) . ولايفهم بالضبط من الكلمة الاخيرة أكانت المرأة هي التي تعاقر الخمر — وقد يكون هذا مستبعدا مع كل ماذكر عن طيب الخمرة الصقلية ووفرتها — ،

---

(٤٣) المصدر نفسه . ص ١١٥

(٤٤) المصدر نفسه ص ١١٨ . استنادا الى مخطوطة الانوار نفسها (نسخة دار الكتب المصرية . رقم ٢٣) . ص ٩٥

ام انها تدفع رجلها اليها استمتاعا اوضجرا من مطالبها . ويستطرد المتصوف الصقلي ليذم أهل عصره ، لأنهم ساروا في ركب النساء ، اذ أدى بهم ذلك الى صرف اموالهم في الباطل ، و " ورثوا من ذلك ذهاب الغيرة لله عز وجل ، ولرسوله عليه السلام ، ولصحابة نبيه رضي الله عنهم ، ولاعراض المؤمنين ولحرماتهم (٤٥) . " ويعقب فزعا من المستقبل : فما ينتظر الناس بعد هذا ، اذا كان موجودا في السلطان ، والقاضي ، والعالم ، والخاص والعام (٤٦) " . ولا يخفي العالم المتصوف ان سبب انسياق الرجل للمرأة هو " أن سلطان الشهوة مجعول معها ، وأنها اقوى قوة تستطيع ان تصرف العالم العارف ، واللبيب العاقل . " ويضيف على ذلك متأملا " كيف يسلم دين من له زوجة لا ترحمه ، وولد لا يعذره " (٤٧) " .

وقد ينسجم مع تلك الصورة التي رسمها المتصوف الصقلي ، صور للمرأة في ميادين حضارية اخرى تتسم بصفات الفن واللهو والمرح . وتتباعد بذلك عن النموذجين الاول والثاني المشار اليهما آنفا . وهذا النموذج الخامس يمكن استنباطه في الواقع من شعر الشعراء الصقليين ، وقد يكون حقيقة واقعة بكل التفاصيل المعطاة له ، وقد يكون محاطا بهالات من اخيلتهم . الا أنه ، حتى ولو كسي بكثير من الخيال ، فان وجوده يبقى حقيقة قائمة . وضمن نموذج المرأة في ميدان اللهو ، تبرز صورة " ساقية الخمر " كما طرحها ابن حمديس " الشاعر ، في عدة من قصائده ، (٤٨) ، وصورة القيان والعازفات على عدد من الآلات الموسقية كالعود ، والمزمار .

(٤٥ ، ٤٦) المصدر نفسه . الصفحة ذاتها (المخطوطة . ص ٥١) .

(٤٧) المصدر نفسه . ص ١١٩ (المخطوطة . ص ٩٦) .

(٤٨) علي مصطفى المصراتي : ابن حمديس الصقلي . القاهرة ١٩٦٣ . ص ٢٨ ، ٢٩

ويضاف الى هذا الجوق الموسيقي ، الراقصة ، التي قدم ابن حمديس صورة مستوفاة لها ، بشعرها الطويل المتماوج ، وثيابها الملونة ، وهي تجر ذيولها ، وتوافق النغمات بقديها (٤٩) . ويرسم ابن حمديس بريشة شعره الجوقة بكاملها فيقول : (٥٠)

يرى ملك اللهو فيها الهموم ... تثور فيقتل ثوارها

وقد سكنت حركات الأسى ... فيان تحرك اوتارها

فهذه ، تعانق لي عودها ... وتلك تقبل مزمارها

وراقصة لقطت رجالها ... حساب يد نقرت طارها

والنموذج المضاد للمرأة الصقلية العربية هو عودة للمرأة الجادة . وقد اشترك برسم ملامحه ابن جبير رحالتنا العربي المعروف ، الذي زار صقلية حوالي ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م ، أي بعد وقوعها بيد النورمان بقرن من الزمن ، والمؤرخ الصقلي فلقندو (٥١) المعاصر للحقبة نفسها تقريبا . وهو نموذج للمرأة المسلمة المخلصة لدينها ، والحريصة عليه ، وعلى الجماعة الاسلامية ، بل والمبشرة به بفعالية وحماسة ، وضمن ظروف صعبة جدا . وكأني بها قد أخذت على عاتقها ، مسؤولية أسلمة حكام الجزيرة الجدد ، ليكون الاسلام دينا لجميع سكانها ، بعد أن غدت مظاهر الحضارة العربية كلها سائدة فيها . وقد تكون تلك المرأة المسلمة ، هي ممن وقع اصلا ، سبيا في يد النورمان عند فتحهم الجزيرة الخصيبة ومن ثم عج بهن بلاط الملوك من امثال

---

(٤٩) احسان عباس . ص ٢٠٢

(٥٠) الصراتي : المصدر السابق . ص ٣٣

(٥١) من المؤرخين المعاصرين لوليام الاول (القرن الثاني عشر) ، وله كتاب :
- La Historia Oregne sicilie e La Epistola ed Petrum Panormitane Ecclesie The saurarium.(Rome 19o4)

"روجر الاول" و "روجر الثاني"، الذي احاط نفسه بالمسلمين — كما هو معروف، وكان من اكثر المقربين اليه عربيان هما الشريف الادريسي، وأبو الصلت امية، بل تداول المسلمون والمسيحيون على السواء اشاعة اعتناقه للاسلام خفية (٥٢). والامر ذاته يقال عن "ويليام الاول" الذي عرف عنه بأنه عاش "نصف مسلم" وقلما كان يغادر حريم قصره، او يسير بدون رفقة محظياته، وموسيقيه من العرب (٥٣). ومن ثم كان من غير المستغرب ان خرجت "النساء المسلمات في بلرم حين وفاته، يلبسن الثياب الخشنة، وقد نشرن شعورهن وملأن الفضاء بعويلهن، وردد ن المراثي السجية على نغمات الطنبور. وذلك لانهن كن يعرفن أنه اذا جاء الى الملك من يكف عن حماية العرب في صقلية، فان حياتهن تصبح في خطر (٥٤). فالعناصر المسيحية في الجزيرة، وبصفة خاصة اللومبارديون، كانوا قد اثخنوا المسلمين قتلا وذبحا في شوارع بلرم في اواخر عهد ويليام هذا (عام ١١٦٠ م)، لتسلط النبلاء على الحكم، واستضعاف امر الملك (٥٥)

ويؤكد هذه الصورة، "ابن جبير"، الذي زار الجزيرة اثناء حكم "ويليام الثاني"، الذي خلف ويليام الاول. اذ يشير الى سيادة النساء العربيات في البلاط النورمندي، وانه كان لهؤلاء الجواري، والمحظيات المسلمات، أثر كبير في نشر الدين الاسلامي بين صفوف النصرانيات. فقد حدثه احد المقربين الى البلاط والعاملين

---

(٥٢) Aziz Ahmad , Op. cit , P. 58

(٥٣) Ibid , P. 64 - 65

(٥٤) احسان عباس. المصدر السابق ص ١٤٩

(٥٥) المصدر نفسه. الصفحة ذاتها. وممن قتل في هذه الواقعة الشاعر القفصي يحيى بن التيفاشي، وقد يكون الادريسي من ضحاياها كذلك.

في ديوان الطراز ، وكان من المسلمين ، أن " الافرنجية من النصرانيات تقع في قصره — أى قصر الملك — فتعود مسلمة ، يعيدها الجوارى المذكورات مسلمة . وهن على تكتم من ملكهن في ذلك " (٥٦) ويضيف ابن جبير " ولهن في فعل الخير امور عجيبة وكم كنا نود لو ذكرنا لنا بعض تلك الامور العجيبة ، لتتضح فعالياتهن . ويبدو أن الملك كان عالما بسرائرهن ، على الرغم من تكتمهن ، ومغضيا الطرف عنها ، بدليل قوله لهن ولفتيانه عندما حدثت الرجفة في صقلية (أى الزلزال) : " ليذكر كل احد منكم معبوده ، ومن يدين به " (٥٧) .

والنموذج السابع للمرأة في صقلية هو المرأة الصقلية النصرانية . ويبدو أن أثر المرأة العربية عليها لم يكن أثرا فكريا وعقائديا ولغويا فحسب ، وانما كان مهيمنا كذلك في الزى والزينة ، بل حتى في الحجاب والنقاب . وقد قدم هذه الصورة كذلك " ابن جبير " من خلال وصفه للنساء النصرانيات اللائي شاهدهن خلال عيد من اعيادهن في الجزيرة . فقد قال عنهن : " وزى النصرانيات في هذه المدينة زى نساء المسلمين ، فصيحات الالسن ، ملتحفات متنقبات ، خرجن في هذا العيد المذكور ، وقد لبسن ثياب الحرير المذهب ، والتحفن اللحف الرائعة ، وانتقبن النقب الملونة ، وانتعلن الاخفاف المذهبة ، وبرزن لكنائسهن او كنسهن ، حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلي ، والتخضب ، (٥٨)

---

(٥٦) ، (٥٧) المكتبة العربية . ص ٨٤

(٥٨) المكتبة العربية . ص ٩٣

واذا كانت المرأة في النماذج السابقة تبدو مرتاحة القسمات ، باسمة الثغر ، متفائلة للمستقبل ، فانها في النموذج الثامن — وهو في عهد النورمان كذلك — تبدو عابسة مكفهرة الوجه ، وقلقة . وقلقها هذا في الواقع ، هو جزء من اضطراب عام ، كانت تعانيه الاسرة العربية المسلمة خلال حكم النورمنديين . وقد نجم ذلك الاضطراب من الشعور بالتفكك الذي أصاب الاسرة ، والتناقض العقائدي الذي كانت تعيشه الاجيال العربية المستجدة ، والتي كانت تتأرجح فيه ، بين عقيدة اسلامية يدين بها الأبوان ، ويربى عليها الولدان ، وعقيدة نصرانية ، تشجع الدولة الحاكمة على الانخراط فيها ، بل وتفسر عليها . ولقد زاد الامر توترا ، عندما شرع بعض افراد الاسرة يتنصل من دينه الاسلامي ، ليعتنق النصرانية لا ايمانا ، وانما كرد فعل آني ، لغضب شخصي بسيط ، او نزوة عاطفية طارئة في محيط الاسرة . ولقد عالج هذا الامر " ابن جبير " فقال :

من أعظم ما مني به أهل هذه الجزيرة ، ان الرجل ربما غضب على ابنه او زوجه ، أو تغضب المرأة على ابنتها ، فتلحق المغضوب عليه أنفة تؤديه الى التطارح في الكنيسة ، فيتنصر ويتعمد ، فلا يجد الأب للابن سبيلا ، ولا الام للبنت سبيلا فتخيل حال من عني بمثل هذا في أهله وولده ، ويقطع عمره متوقعا وقوع هذه الفتنة فيهم . فهم الدهر كله في مداراة الاهل والولد خوف هذا الحال (٥٩) " . بل الظاهر ان الواقع الاجتماعي كان قد تطور الى حد أن الناس اصبحوا يرون ان " الضرورة لا تمنع الزواج من النصرانية على أن يقتسم الاولاد بين الاب والام ، فما كان من ذكر فهو للزوج ، وما كان من انثى فهو لها (٦٠) . "

---

(٥٩) المصدر نفسه . ص ١٠٤

(٦٠) احسان عباس . ص ٣٠٣

ويبدو أن اكثر ماكان يحز في نفس الصقلي العربي المحافظ على مجموع تراثه ، خوفه على حريمه ، أو على المرأة في اسرته . وما اخاله في هذه العقبة العصية من حياته ، الا وقد اشتد كرها لانجاب البنات . ويتبين هذا الجزع مما ذكره " ابن جبير " عن سعي احد الصقليين العرب لدى اصحاب " ابن جبير " من الحجاج ، كي يتزوج من ابنته الصغيرة السن ، ويحملها معه خارج صقلية ، او يخرجها معه ثم يزوجها من يرتضيه لها . وكل هذا ، رغبة في تخليصها مما قد يخفيه المستقبل لمثيلاتها من الفتيات العربيات في الجزيرة . ويبدي ابن جبير " شفقته على هذه العال ، ويظهر عجبه منها وكيف " تودي بانسان الى السماح بمثل هذه الوديعة المعلقة من القلب ، واسلامها الى يد من يغربها ، واحتمال الصبر عنها ، ومكابدة الشوق لها ، والوحدة دونها (٦١) " . ومع أن الصورة قاتمة ، الا انها تدل مرة اخرى على أن الفتاة العربية ، على الرغم من صغر سنها كانت ثابتة الجنان ، قوية الارادة ، حتى أن " ابن جبير " دهش من موقفها و " رضاها بفراق من لها ، رغبة في الاسلام ، واستمساكا بعروته الوثقى (٦٢) " . ويؤكد " ابن جبير " ، بأن تلك الفتاة ارتضت ذلك المصير بمحض ارادتها ودون قسر ، اذ ان والدها استشارها في الامر فأجابته " ان امسكتني فأنت مسؤول عني . " (٦٢)

ومن النموذج السابق للمرأة الصقلية العربية العادية ، يتضح بأنها عاشت وضعا ممزقا للذات في ظل الحكم النورمندي ، على الرغم مما ذكرناه عن فعاليتها الفكرية وأثرها في البلاط ، وتأثيرها في الملوك أنفسهم : فهي مهددة بالسبي ، وانتهاك العرض ،

---

(٦١) المكتبة العربية . ص ١٠٤

(٦٢) المصدر نفسه . الصفحة ذاتها .

وهي في الريف ، وأحيانا في المدينة ، بل وفي البلاط امة مستعبدة ، وابنها مثلها . وحيث تتمتع ببعض حرية في الحياة مع رجلها العربي في بعض المدن ، فانها تشعر بأنها غير آمنة ، اذ انها عرضة في كل وقت لتحمل هجمات من الصقليين . وفي ذلك يقول "ابن جبير" عن مجموع العرب في الجزيرة : وبالجملة فهم غرباء عن اخوانهم المسلمين ، تحت ذمة الكفار ، ولا أمن لهم في اموالهم ، ولا في حريمهم ، ولا ابنائهم (٦٣) . بل كانوا يشعرون بأنهم رهائن بيد ملك صقلية ، يتخذهم أداة تهديد في وجه كل امير او ملك عربي يفكر بغزو الجزيرة ، أو تسول له نفسه التنكيل بالنصارى . وهذا مافعله صاحب صقلية عندما هدد قائد الموحدين عبد المؤمن بقوله: " ان قتل عبد المؤمن اصحابنا بالمهدية ، قتلنا المسلمين بجزيرة صقلية ، وأخذنا حرمهم واموالهم (٦٤) .

والحق يقال ، قد لايكون الخوف من السبي والاغتصاب هو هاجس المرأة العربية المرعب فحسب ، بل هو هاجس المرأة في صقلية عموما . فالاثنتان العربية وغير العربية ، كانتا تخشيان الامر نفسه اذا ماتسلط احد الطرفين على الآخر . وتبدو هذه الروح في امنية ابن جبير نفسه اثناء حديثه عن حصن للروم في صقلية قرب "اطرانيش" ، يقال ان "حريمه من احسن حريم هذه الجزيرة" ، "جعلها الله سبيا للمسلمين . (٦٥)

---

(٦٣) المصدر نفسه ص ٩٢

(٦٤) المصدر نفسه . ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ (عن رحلة التيجاني) .

(٦٥) المصدر نفسه . ص ٩٤

ولابد من التنويه بأنه على الرغم من المقاومة العنيدة التي أبدتها المرأة العربية تجاه الاضطهاد ولاسيما العقائدي (٦٦)، فان فئة آثرت السلامة ، واندمجت دينا وحياة مع بقية العناصر في الجزيرة شأنها شأن الرجل ولايعلم بالطبع مشاعرها تجاه هذا التغيير

---

(٦٦) بدأ المسلمون يقاسون اضطهادا دينيا بعد تسامح منذ أواخر عهد " روجر الثاني ونفذ عام ١١٥٣ . وقد يكون ظهور الموحدين في شمالي افريقية عاملا هاما ومثيرا للنورمان في صقلية . ففي عهد ويليام الاول بن روجر الثاني جرد المسلمون من السلاح في بلرم ، ولقي عديد منهم ، ومن العاملين في البلاط مصرعه . وقد حاول المسلمون الثورة والمقاومة عام ١١٦١ ، الا أن محاولتهم أحبطت . وفي عام ١١٦٧ ، وخلال وصاية الملكة " مرغريت " على ابنها ويليام الثاني ، تقدم بعض النصارى بتظلمات ضد المسلمين المتنصرين الذين يقبضون على مناصب عالية في الدولة ، بأنهم قد ارتدوا عن دينهم المسيحي ، وعادوا الى معتقدهم السابق ، وانهم يبشرون به بين النساء المسيحيات ، والفتيات المسيحيين . وقد عوقب هؤلاء المتهمون ، ولوحق الآخرون . وان ماطرحه " ابن جبير " عن احوال المسلمين في صقلية عام ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ ـ ١١٨٥ م ، يؤكد ملاحقة النورمان للمسلمين في دينهم ولاسيما في بعض المدن . ويمكن القول ان معاملتهم كانت تتراوح بين اضطهاد وتسامح . (انظر المكتبة العربية ص ٨٤ فما بعد . احسان عباس . المصدر السابق ص ١٤٧ ـ ١٥٤ ـ

Aziz Ahmad , op. cit. . PP 68 - 75 و

الا أنه يلفت الانتباه في احدى الوثائق التي اوردها المستشرق الجليل "اماري وهي قبرية بالعربية (٦٧)، لامرأة مسيحية تدعى "أنّـة" دونت في عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، أي بعد مرور مايقارب القرن على احتلال النورمان لصقلية، بأن صاحبة هذه القبرية قد دفنت في الجامع الاعظم أولا، ثم نقل ابنها رفاتها الى كنيسة صنت مخايله، وبنى على قبرها كنيسة وسماها صنت آنة. ويتساءل القارئ لهذه القبرية: هل ياترى تم دفن صاحبتها في الجامع الاعظم — وقد حول الى كنيسة ايام النورمان (٦٨)، لعظم قدر ابنها، وكان اذ ذاك يجب ماورد في القبرية — "قسيس الحضرة المالكة الملكية العالية العالية"، ام لأنها كانت في اصلها مسلمة، ثم تنصرت، فحفاظا على

---

(٦٧) لقد اورد نص القبرية: محمد كرد علي في كتابه: الاسلام والحضارة العربية. القاهرة ١٩٥٠ ص ٢٩٠ — ٢٩١ وقد اقتبسها من كتاب أماري — حسبما ورد في هامشه —: Documenti all storia di sicilia

ونص القبرية كما يلي: "توفيت أنة أم القسيس اكريزنت قسيس الحضرة المالكة الملكية العالية العلية المعظمة السنية القديسية البهية، المعتزة بالله، الملزوزة بقدرته المنصورة بقوته، مالكة يندالية ولنكبردة وقلورية، وصقلية وافريقية معزة امام روميـة الناصرة للملة النصرانية صرمد الله مملكتها، يوم الجمعة والعشر العشرين من اوسه سنة ثلاث واربعين وخمسمائة، ودفنت بالجامع الاعظم، ثم نقلها ولدها بالمستجد الى هذه الكنيسة، صنت مخايله يوم الجمعة اول ساعة العشاء. العشرين مائة سنة — اربع واربعين وخمسمائة، وبني على قبرها هذه الكنيسة وسماها صنت آنة على اسم امه (مر) يم ... ودعا لها بالرحمة آمين آمين آمين.

(٦٨) المكتبة العربية ص ٢٨ (عن الشريف الادريسي)

صلة ماضية " ارادت ان تكون ثاوية في الجامع الاعظم على الرغم من تحوله الى كنيسة ثم جاء ولدها ورأى نقل رفاتها لظروف ما الى كنيسة اخرى ؟ ان الكلمات الواردة في الدعاء للحضرة الملكية مثل " المعتزة بالله ، الملزوزة بقدرته ، المنصورة بقوته " اسلامية النفحة ، وتأتي عملية نقل الرفات التي تمت في يوم الجمعة ، وهو اليوم المقدس عند المسلمين ، لتكون هذه اشارات قد تؤيد الظن الاخير . بل كأني بولد صاحب القبرية هو " ابن زرعة " نفسه الذي أشار ابن جبير " الى اضطراره لتغيير دينه ، والى انغماسه في الدين الجديد ، وتعلمه قوانين شريعة المسيحيين ، حتى غدا من جملة القسيسين الذين يستفتون في الاحكام النصرانية والاسلامية ، على السواء (٦٩) . وكأني بالكنيسة التي نقل رفات امه اليها ، هي المسجد الذي كان له قرب داره ، والذي اشار " ابن جبير " الى تحويله الى كنيسة . وقد يساعد على تأييد هذا القول ، بعض التزامن الواقع بين كتابة القبرية (٥٤٣ هـ) ، وزيارة ابن جبير للجزيرة بعدها (في ٥٨٠ هـ) ، ثم ان الاسم " اكريزنت " الذي اعطي للقسيس ابن صاحبة القبرية ، على الرغم من بعده النسبي عن لفظ ابن زرعة ، الا أنه يبقى قريبا كقرب لفظ " افيروئيس " من " ابن رشد " مثلا .

ان تلك الاوضاع المبلبلة التي عاشها العربي والعربية في صقلية ، منذ بدأ مفهوم التسامح ينحسر من أذهان النورمنديين ، وبعض سكان الجزيرة ، ولدت لديهما مشاعر قلق مرهقة . ولقد شاركهما هذه المشاعر كذلك المؤرخ الصقلي " فلقندو " ، الذي على مايظهر ، كان حريصا على الوحدة الوطنية في الجزيرة ، وسلام العرب المسلمين مع

---

(٦٩) المصدر نفسه ص ١٠١ .

اخوانهم من النصارى فيها . ويتبدى هذا في رسالة بعث بها الى صديق ، وبثه فيها هواجسه بعد وفاة " ويليام الاول " قائلا : " انني لأرى بعيني بني وطني فريسة للذبح والاسر ، وأرى العدوان واقعا على العذارى والنساء (٧٠) .

وبالفعل حدث ماتوقعه " فلقندو " : فقد ثار العرب نتيجة الضغوط الواقعة عليهم ، وحياة العبودية والفقر التي كانوا يحيونها ، وبصفة خاصة أقنان الارض منهم (٧١) ، وكان ذلك عام ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م ، اى بعد خمس سنوات من مغادرة ابن جبير للجزيرة . وقد دامت الثورة عاما تقريبا الا انها اقمعت في النهاية . وعلى اثرها ، هاجر عدد من تجار العرب وصناعهم الى شمالي افريقيا فارين بأهلهم وولدهم . بينما بقي أهل الأرياف الملاكون مع اهلهم مشردين ، ومعتصمين في الجبال ، وقد منحت اراضيهم للاقطاعيين المدنيين والدينيين . اما الارقاء من سكان الريف ، فعادوا الى الحقول يكدحون (٧٢)

---

(٧٠) احسان عباس المصدر السابق ص ١٥٣ .

(٧١) يصنف العرب في عهد النورمان ، وآل هوهنشتاوفن ، ضمن فئتين : اهل مدن يتمتعون ببعض حرية ، الا أنه لا يحق لهم التوسع في ممتلكاتهم ، وفلاحين يعملون في الارض وهؤلاء فقدوا كل حريتهم وأصبحوا رقيقا . والرقيق المسلم أو " اهل الجرائد " — كما تسميهم بعض المصادر — قسمان : رقيق غدا جزءا من الارض ويباع معها ، بل ويقرن في بعض مواد القانون بالحيوانات ، ويحصى مع الخيل والبغال وغيرها . وكان ابناؤهم بالطبع عبيدا ، ولو تزوج العبد منهم بامرأة حرة وعلى هؤلاء تقع الخدمة العسكرية ، وواجبات الدفاع عن سلامة حصن السيد الاقطاعي . والقسم الثاني من الرقيق المسلم هو الحر بشخصه ، والمسترق بعمله (انظر احسان عباس ص ١٤٢) .

(٧٢) المصدر نفسه ص ١٥٤ .

ومن كل هذا الشوك القارص ، المزروع في طريق السلام والتآخي ، ومن الاقدام المدماة ، والنفوس المعذبة للمرأة والرجل العربيين في صقلية خلال الجزء الثاني من حكم النورمان ، انبثقت ، وكزهرة الصبيّر اليانعة الزاهية ، قائدة الثورة العربية في صقلية ، عام ١٢٢١ م / ٦١٨ هـ ، أو النموذج البطولي المشرف للمرأة ، وللانسان العربي بصفة عامة ولصقلية فقد قام العرب المسلمون المقهورون ، في ذلك العام ، وفي عهد الامبراطور " فردريك الثاني " ، الذي اشرنا سابقا ، الى ولعه بكل النتاج الحضاري العربي ، والى صليبيته المعروفة ، بمهاجمة كنيسة القديس " جيوفاني دولوبروزي " في مدخل باليرمو ، كما وأسروا اسقف " جرجنت " . وقدرت قوات العرب المشتركة في الثورة بين خمس وعشرين الفا وثلاثين الفا (٧٣) ، وكانوا تحت امر ثائر من بني عبس (٧٤) اطلق عليه المؤرخون المسيحيون اسم " ميرابيتو " ، وقد تكون " المرابط " : فمن المعروف — كما المحنا سابقا — أن صقلية كانت زاخرة برباطات الجهاد في العهد الاسلامي وقد استغل العرب الثوار اضطراب امور المملكة النورمندية ، ليضعوا ايديهم على الاراضي في غربي صقلية ، ويتملكوها لعشرين عاما . بل تمكنوا من السيطرة على حصن " جاتو " و " انطالة " القريبين من باليرمو . فوجه فردريك الثاني حملات قوية ضد " جاتو " استطاعت أن تنتصر على " المرابط بن عباد " وتأخذه اسيرا هو وحلفاؤه من النصارى (٧٥) الصقليين

---

(٧٣) Aziz Ahmad , op . cit, P. 83

(٧٤) المكتبة العربية ص ٤٩١ (عن ابن خلدون) .

(٧٥) Aziz Anmad , op . cit , P. 84

واتفق الامبراطور مع البطل الاسير على " أن يدخل (ابن عباد) تحت طاعته ، ويأخذ جميع اقواله وذخائره ، ويجهزه في قطائع الى ساحل افريقيا ، ولا يقتله "(٧٦)

وهنا يبرز وجه المرأة العربية ، المسلمة ، المؤمنة ، والمجاهدة على شكل ، ملحمة ، أترك للنص العربي الذي اتى بها ، روايتها والتغني بها . يقول النص: " وأبت ابنته أن تدخل هذا الصلح ، وامتنعت في هذه القلعة ، وقالت لأبيها : " أنا فداؤك ! فان اصبت خيرا ، اتبعتك ، وان كان غير ذلك ، فلابد أن أنكي اعداءك ، وآخذ بثأرك على قدر الاستطاعة ! " ولما احدقت به القطائع ، وغابوا عن العيون ، قال له الموكلون به : ان السلطان قد وفى لك ، ولم يحنث في يمينه ! وهانحن قد توجهنا الى افريقية ، وهو لم يقتلك ، ونحن نغرّقك في البحر ونريح منك دين المسيح ! فالذي صنعت في هذه الجزيرة ، مثله لاينسى ! " ثم غرقوه ، وعادوا بجميع أمواله الى الانبرور .

" وحمدت ابنته رأيها ، وزادت بصيرة في الامتناع بذلك المعقل المعانق للسحاب ، وجعلت تفادي بشن الغارات وتراوحها ، بمن خاف غدر الانبرور من فرسان المسلمين ورجالهم .

" ثم ارسلت في سنة ٦١٩ الى الانبرور " اني امرأة ، وقد بليت بمعاربة الرجال ومداراتهم وقد ضقت ذرعا بالأولياء منهم والاعداء ، وضعفت نفسي ، ومعي من صناديد الأبطال من لاينقاد لموادي . فأرحني وأرح نفسك وأهل مملكتك من هذا النصب الدائم ، بأن توجه الي ثلاثمائة من أبطالك الذين لايهابون

---

(٧٦) من نص كتاب روض المعطار في عجائب الاقطار لابن عبد المنعم الحميري (من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي) قام بتحقيقه ونشره المستشرق "ليفي بروفنسال" تحت عنوان :

Le'vi Provencal, E, " Une he'roine de la resistance Musulmane en Sicile au dibut du xlIIe siecle, Ouiente Moolerno, 34(1954) . P . 284

— انظر روض المعطار في خبر الاقطار . تحقيق احسان عباس — بيروت ١٩٧٥ ص ٤٠ — ٤١

ولا يخدعون ، فأدخلهم ليلا الى هذا الحصن ويجترؤون عليه ، فاذا ملكوه ، ودخلت أنا بعد ذلك في طاعتك ، لم يكن بعد ذلك شيء تتوقع منه غائلة . فتفكر فيما خاطبتك به والله يخلق ويختار ."

"قال : وكان الانبرور قد طالت اقامته واقامة جموعه على حصارها . فرأى ذلك غنيمة لا يجب ان يؤخر انتهاز الفرصة فيها . فاختار ذلك العدد ، وأوصاهم ، وأنفذهم في الليل . ففتحت لهم باب قلعتها ، وفرقتهم على ابطالها بحيل تمت عليهم . فلما ولى الظلام وتبينت الوجوه ، ركب الانبرور الى جهة الحصن ، ليطلع الى أعلاه كيف هي على سوره . فاذا برؤوس ابطاله معلقة مابين شرفاته ، وأعلام المسلمين منشورة ، وطبولهم عاملة ، وكلمتهم عالية . فسقط في يده ، ونظر الافرنج الى مالم يكن في حسابهم ، ولا خطر لهم أنه يتم في المنام بالأحلام .

"قال : فأراد ان يبلغ في هذه القضية غرضه بحيلة تتوجه عليها . فأرسل اليها : "أنت قد غششت ، ولا ابالي بمن مات من أهل ملتي ! وقد ظهر لي أن مافي الدنيا امرأة تصح أن يكون بي فيها ولد غيرك ، فتعالي حتى نتم ذلك ! فأنت ، ان بقيت على ماكنت عليه ، وحصلت في أيدي الافرنج ، قطعوك عضوا عضوا ! فاختاري لنفسك ما ترينه مصلحة ! " فأجابته :

"وصلني كتابك ، وفهمت حقه وباطله . وأبلغني بعض عيوني الذين لم أزل أبثهم عليك أنك قلت : هذا عجب ! تمكر بثلاثمائة رجل ! وليس هذا بعجب ! وقد انزل في الكتاب المنزل على نبينا محمد (صلعم) في ذكر النساء : ان كيدهن عظيم . فهذا من ذلك . وانما العجب مني ومنك ، أنا عقيمة في نبذة من الأرض ، ولا ناصر لي ،

وأنت تملك مسيرة نصف شهر ، ولك الجيوش التي تغص بها الارض ، والخزائن والأموال ، والخواص أصحاب الآراء ! وقد أثر فيك توقفك وشغلك عن مهمات امورك وقدرت عليك اكثر ماقدرت علي ، وأنكيت فيك اشد من نكايتك لي ، وهاأنا اقطع عليك السلاسل في الحيل ! فيكفي حيلتك ، ثم حيلتي في ابطالك ! ومن الآن فما أيئس أن احصّلك في يدى ، وفي جسدى روح ، وأنا مقاتلتك ومكايدتك حتى تفنى ذخائرى التي بها الحصن ، ويعجز اهل حمايتي . فاذا انتهيت الى هذا الحد ، فعلت ماسيبلغك ! " قال : فيئس الانبرور منها وقال : " مالهذه الا المطاولة ! " فبنى حصنا في موابطة حصنها ، فصار الرجالة الى جذره يترددون على ذلك الحصن ، كلما كلت طائفة ، استجدت غيرها ، الى أن بلغت الحد الذى وعدت به . فسمت نفسها (٧٧) ولم تنطفيء نيران الثورة العربية " بانطفاء ابنة ابن عباد ، بل تابعت اشتعالها لسنتين اخريتين . ولعل الموقف الصلب والحديدى ، لابنة المرابط ابن عباد ، كان وقودا لها . ولقد وجد " فردريك الثاني " حملات عديدة ضدها ، وكان العرب قد التجؤوا الى المرتفعات الشاهقة ، يديرون المقاومة منها . الا أن انقسامهم الى جماعات محدودة العدد ، وتناثرهم في الجبال تحت ضغط الملاحقة ، ألزمهم على التسليم . وهنا اتخذ " فردريك الثاني " قراره الهام بتصفية العرب من الجزيرة ، وذلك بنقل المستسلمين الى " لوجارة "(٧٨)

---

(٧٧) Ibid P. 284 - 286.

(٧٨) لقد انشأ فردريك الثاني مستعمرتين مسلمتين اخريتين على الارض الايطالية احداهما في جيروفالكو Girojalco وثانيتهما في " نوجيرا " . ومع كل التهجير هذا ، فقد عاد المسلمون الى الثورة بعد عشرين عاما اى في عام ١٢٤٣ وقاوموا القوات الامبراطورية لثلاث سنوات ، الا انهم استسلموا في النهاية ، وهجروا الى لوجارة
وسعى الاباطرة ان ينصروا " لوجارة " بالامتناع والعنف . ونجحوا في ذلك عندما الزموا السكان في عام ١٣٠٠ على هذا الامر .

في ايطاليا على الارض الايطالية . وقدر عددهم بستة عشر الفا ، اضيف اليهم من نقله من سكان جزيرة مالطة بعد أن اقتحمها غازيا (٧٩) .

ان من سخرية القدر — كما قال عزيز احمد ان يكون الامبراطور العالم والمؤمن بالحضارة العربية الاسلامية ، وانتاجها الفكري ، والمشع لها بالترجمة على كل اوربا ، والمتحاور في عطاءاتها العلمية والفلسفية مع اقطاب الفكر في العالم العربي والاسلامي ، هو الذي انهى الوجود العربي في صقلية . اليست هذه مفارقة التاريخ الكبرى ؟ علاقة التناقض الحاد بين مبدع الحضارة وآخذها ؟

والآن ، هل تكاملت الصورة عن المرأة في صقلية العربية ، وعن دورها السياسي والحضاري ، لقد كان الحديث في الواقع ، اشبه بشريط سينمائي ، تتالت فيه الصور بين حضارة وسياسة ، الا أن تلك الصور ناقصة ومهتزة ، وغير متواصلة تواصل السدى باللحمة ، لقلة المعطيات التي نملكها عنها . فنحن لانتبين مثلا اية صورة للمرأة العاملة في الميدان الاقتصادي ، كالزراعة ، والصناعة ، والتجارة ، وكذلك الامر في الميدان الفكري : العلمي والتعليمي . فالمكتبة العربية صامتة صمت القبور عن مثل هذه الامور . ولكن هذا وقفة اخرى تكرر لايعني بالطبع انعدام انخراط المرأة الصقلية في المجالين الاقتصادي والفكري ، او انعدام عطائها فيهما — .

فقد يجيء اليوم الذي تمتلئ فيه الثغرات وتتكامل الصورة ، اذا عاهدنا نحن وصقلية اليوم ، يدا بيد ، للبحث عن كل المفتقد من التراث ، وسعينا بروح علمية مشيدة ، لنشره وبثه ، وايضاح اثره الماضي في الحضارة الاوربية .

---

(٧٩) المكتبة العربية ص ٤٩١ — ٤٩٢ (عن ابن خلدون) .